

رباعيات الخيام نصوص جدلية أغلبها وهمي

مدونة في عصره، أو في مدة قريبة منه. وقد عدا استخراج رباعياته الأصيلية والإهداء إليها واحدة من أكبر مشكلات الأدب الفارسي إلى اليوم، لافتا إلى أن المجموعات التي أخذت تصل إلينا بكثرة، بعد حوالي أربعة قرون من وفاة الخيام لا يمكن الركون إليها والاعتماد عليها، لما يُعتقد فيها من دس ووضع وتداخل.

ويتحدث بكار عن جهد بعض الباحثين العرب المعاصرين الذين حاولوا أن يفسروا اختلاط الرباعيات، اعتمادا على مؤلفات الغزالي الذي كان معاصرا للخيام، بإرجاعها إلى طوائف الإباحية التي كانت تنتشر في عصره، ووصفها وصفا دقيقا، وذكر الشبه التي أوقعتهم في الإباحية، وردا.

لكل رباعية بؤرتها المركزية التي هي عماد «فن الرباعية» الفارسي الذي يهدف إلى إيصال فكرة واحدة دقيقة تامة

ويوضح بكار أن مشكلة الرباعيات المنسوبة إلى الخيام لم تنته بعد، ولم يُجسم أمرها، والمسألة "أن الخيام نظم رباعيات أولا لأنه من غير المعقول افتراض أن عددا كبيرا من أهل الفكر والأدب والتاريخ اتفقوا أو توافقوا على مدى قرنين أن ينسبوا إليه هذه الرباعيات. كذلك مسألة عدد الرباعيات التي تصح نسبتها إليه، أي العثور على رباعيات يكون ظن الإصالة فيها أكثر، لذلك أخذ عدد الرباعيات يزداد كلما ابتعدنا عن تاريخ وفياة الخيام، ولاسيما بعد النصف الأول من القرن الثامن الهجري، وغر منذ ذلك التاريخ على مجموعات منها يتراوح عددها بين 158 و500 رباعية".

ويقول المترجم إن الأدب والباحث الإيراني علي دشتي اعتنى عناية شاملة بالخيام والرباعيات، إذ درس شخصية الخيام وأخلاقياته العvisة علميا وأدبيا ومسلكا وعقيدة، مستعينا بانوات علمية ومصابر عدة، ومهتديا بقرائن أخضعها جميعا لمنهج علمي دقيق صارم، بحثا عن عمر الخيام من خلال ما خلف من آثار علمية وأدبية وفلسفية، ومن آراء معاصريه ومن مسلكه الحذر المحتاط، ونمط خطابه، وفكره، وسوءات عصره الكثيرة التي كانت تستوجب ذلك.

واستطاع بكار أن يزيل القناع إلى حد كبير عن شخصية الخيام، فخلص إلى أنه كان "مفكرا حرا في مضطرب متلاطم الأمواج، دون أن ينتمي إلى أي مذهب أو فرقة، وإن كان أقرب إلى الصوفية التي تجمع بين الشريعة والفلسفة. أما الرباعيات، فقد تقصاها تقصيا علميا جادا، فتحصها بدقة وعناية من خلال المصادر الموثوقة الأقرب إلى عصر الخيام، فاستقر اختياره على خمس وسبعين رباعية، رآها الأقرب إلى خطاب الخيام وفكره وفق ما تقدم".



الخيام كان مفكرا حرا في زمن مضطرب

عمان - قدم الباحث والمترجم الأردني يوسف بكار ترجمة جديدة لرباعيات الخيام تتضمن 75 رباعية نقلها مباشرة عن اللغة الفارسية. وجاء في مقدمة بكار أن هذه الترجمة هي الأحدث عربيا لرباعيات الخيام وأقلها عددا، وهي التي يرجح الأديب والباحث الإيراني علي دشتي أصالتها، متتبعا إياها تاريخيا ونقديا في مصادرها المختلفة، وذلك بعد أن درس الخيام من خلال ما خلف من آثار في موضوعات شتى، ووجهات نظر معاصريه فيه، دراسة علمية عميقة جادة، في شخصه ومسلكه وفكره وعقيدته، تختلف كثيرا عن جل ما هو متداول من أفكار تصل إلى حد الأوهام والتزييف.

ويتسبب بكار إلى أنه ترجم عشرين رباعية سبق أن أدرجها في كتابه "الترجمات الأردنية لرباعيات الخيام: دراسة نقدية"، وكانت الترجمة الأردنية السابعة بعد ترجمات كل من الشاعر مصطفى وهبي التل عام 1922، ومحمد الظاهر عام 1967، ونيسير سبول عام 1973، ومحمود شلبي عام 2013.

وحول اختياره الرباعيات يقول المترجم "من أجل إثبات الأصول الفارسية لها، من أجل تسهيلها على القارئ، وترجمتها ترجمة ثرية اتصالية ضمنية دقيقة غير خفية، تفي بالغرض نفسه في اللغة العربية، مثلما يفعل الغرض الأصل في اللغة الفارسية، حيث حسب القارئ أنه يقرأ عملا مؤلفا لا مترجما". وهذا ما حرص عليه المترجم، لافتا إلى أنه حافظ على فكرة كل رباعية، وبؤرتها المركزية التي هي عماد "فن الرباعية" الفارسي الذي يهدف إلى إيصال فكرة واحدة دقيقة تامة، لافتا إلى أنه راعى في الترجمة المصطلحات بمفاهيمها الدقيقة في اللغة الفارسية وأدائها.

ويوضح بكار أن مغامرة الترجمة في المختارات، الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ساعدته في الإطلاع على حقيقة رباعيات الخيام التي ما زالت غامضة ومشوشة، إذ لم يكن في آداب الأمم كافة شخصية جدلية كعمر الخيام، سواء أكان ذلك في سيرته أم في رباعياته؛ فنحن ما زلنا لا نعرف تاريخ ميلاده ووفاته الدقيقين، ولا تفصيلات حياته العامة والخاصة، ولا حقيقتا رباعياته الأصيلية، ولكن لا جدال في أن منشأ شهرة الخيام في العصر الحديث هو الرباعيات التي لا يُعرف على وجه التحقيق عددها، وما هو ثابت النسبة منها إليه، وقد طارت شهرته إلى الغرب، ثم انتقلت إلى الشرق، فصار

معروفا في الخافقين، في حين أنه لم يكن معروفا بها قديما، بل تانت شهرته من جهوده العلمية البحتة، وما عُرف عنه من مكانة في العلوم الشرعية والإنسانية. ويؤكد المترجم أن مصدر المشكلات التي يتعرض لها "الباحثون الرباعيات" هو عدم وجود "ديوان" أو "مجموعة" أصيلة موثقة بعنوان "رباعيات الخيام"، مكتوبة بخطه، أو

للنصوص الشعرية والنثرية التي ضمها الكتاب "كالنصوص الإبداعية العظيمة كلها، تقرأ نصوص بورخس أنك تقرأها دائما أول مرة. وما شجعنا على نشر هذه المختارات، على الرغم من الانتباس الذي يحوط ترجمة الأدب، وهذا الأدب بالأخص، هو أننا اعتبرنا، بداية، أن ترجمتنا ليست أكثر من قراءة واحدة لنصوص تحتل قراءات عدة. إنها محاولة من أجواء الكتابة الأصلية بلغة أخرى". ويضيف "السبب الثاني الذي دفع بورخس هو الميل إلى الدعاية الذي وفيها لترجمته المترجمة. صحيح أن النصوص الشعرية والنثرية التي اخترناها تركت على جانب محدد وتكشف مدى اهتمام بورخس بالتراث العربي وتأثره به. وفي مقدمه "الف ليلة وليلة"، إلا أنها لا تنحصر في هذا الجانب فحسب بل تتجاوزها أحيانا إلى جوانب تنطلق من هواجس أخرى، وذلك لموضعة الشرق في نتاج بورخس ووضعها في إطار أشمل يعكس تنوع هذا النتاج وانفتاحه على مختلف الثقافات".

مختارات جديدة لبورخس عاشق التراث العربي

التاريخ الأدبي ليس تاريخ الكتابة بقدر ما هو تاريخ القراءة



علاقة بورخس بالكتاب علاقة طوقسية

معانيها. زمن العطاء ليس الزمن الذي تنتهي معه الكتابة، بل هو زمن القراءة اللانهائي. كل كتاب يولد ثانية إثر كل قراءة جديدة، والتاريخ الأدبي ليس تاريخ طرائق الكتابة وأغراضها بقدر ما هو تاريخ طرائق القراءة ومنطقها. ومن هذا المنظور تختلف الآداب باختلاف الطريقة التي تقرأ بها أكثر من اختلاف النتاجات ذاتها. يقول بورخس في كتابه "تاريخ العار الكوني"، "القراءة امتداد الكتابة، إنها مهمة أكثر ثقافة".

ويرى أن تفاعل بورخس مع الموروث العربي والإسلامي لا يتوقف عند حد، فهو أفاد أيضا من النوازل والأساطير والخرافات التي وقف عليها في الكتب المترجمة من العربية والفارسية إلى لغات عدة، ومنها بالأخص الإسبانية والإنجليزية.

في كتاب "موجز في علم الحيوانات الغريبة" يستقي بورخس فكرة طائر العنقاء الخرافي من الأدب العربي، وطائر "السيبورغ" من "منطق الطير" لفريد الدين العطار. ولا يكفي باستيحاء موضوعات هذا التراث فحسب، بل يستوحي أيضا أساليب، كأنه يستهل قصة "الملك والمناهتان" بهذه العبارة "يروى رجال اتقيا والله أعلم" ويختتم نضه بتسبيح "الذي لا يفنى ولا يموت". أما قصة "البخاري ميت في مهابته" فبدأ باستشهاد من القرآن "كمثل العنكبوت اتخذت بيتا".

ويتابع مخلوف حول اختياراته للنصوص الشعرية والنثرية التي ضمها الكتاب "كالنصوص الإبداعية العظيمة كلها، تقرأ نصوص بورخس أنك تقرأها دائما أول مرة. وما شجعنا على نشر هذه المختارات، على الرغم من الانتباس الذي يحوط ترجمة الأدب، وهذا الأدب بالأخص، هو أننا اعتبرنا، بداية، أن ترجمتنا ليست أكثر من قراءة واحدة لنصوص تحتل قراءات عدة. إنها محاولة من أجواء الكتابة الأصلية بلغة أخرى". ويضيف "السبب الثاني الذي دفع بورخس هو الميل إلى الدعاية الذي وفيها لترجمته المترجمة. صحيح أن النصوص الشعرية والنثرية التي اخترناها تركت على جانب محدد وتكشف مدى اهتمام بورخس بالتراث العربي وتأثره به. وفي مقدمه "الف ليلة وليلة"، إلا أنها لا تنحصر في هذا الجانب فحسب بل تتجاوزها أحيانا إلى جوانب تنطلق من هواجس أخرى، وذلك لموضعة الشرق في نتاج بورخس ووضعها في إطار أشمل يعكس تنوع هذا النتاج وانفتاحه على مختلف الثقافات".

العلاقة بين بورخس والكتاب علاقة طوقسية، وفي الركن وراء المال والمجد. كل هذا غريب عني. أكره النزاعات القومية. الدول خطأ كبير. أحاول أن أكون مواطنا من هذا العالم". وقد توج حديثه بالعبارة الآتية "انظر إلى الكون وإلى حياتي الشخصية ولا أفهم شيئا".

الفوضوية التي ومن تصريحاته الدائمة "لا أجد أي فائدة في السياسة. وفي الركن وراء المال والمجد. كل هذا غريب عني. أكره النزاعات القومية. الدول خطأ كبير. أحاول أن أكون مواطنا من هذا العالم". وقد توج حديثه بالعبارة الآتية "انظر إلى الكون وإلى حياتي الشخصية ولا أفهم شيئا".

القراءة والتراث العربي
يرى مخلوف أن علاقة بورخس بالكتاب علاقة طوقسية، لقد ظل يتوهم طوال حياته أنه ليس أعمى. يشتري كتب ويملأ بها داره، ويصرح بأن الكتاب أحد أسباب السعادة الممكنة. ويعتبر أن الكتاب، قياسا إلى ما ابتكره الإنسان، هو أكثر ما يثير ويدهش، لأن الوسائل والأدوات الأخرى امتداد لجسده: المجهز والقرب امتداد لبصره، الهاتف امتداد لصوته، المراتح والسيوف امتداد لنزاعه. أما الكتاب فهو شيء آخر تماما. إنه امتداد لذاكرته ومخيلته.

ويرى أن العصور القديمة كان لها حيال الكتاب مواقف خاصة. فالكتاب حل محل الكلام، أي محل الخطاب الشفهي، لافتا إلى أن سقراط لم يترك نتاجا مكتوبا، والمسيح خط مرة واحدة إشارات معودة محاسا الرمل، ويودا هو أيضا كان معلما شفهيًا.

ويتسبب بورخس إلى عبارة الفيلسوف أنسلم أسقف كانتربري التي جاء فيها "أن تضع كتابا بين يدي شخص جاهل مسألة لا تقل خطورة عن وضع سيف بين يدي ولد قاصر". ويضيف أن هذه الفكرة كانت تختصر موقفا سائدا من الكتاب. وأن مهمة الكتاب ليست الكشف عن الأشياء، بل في المساعدة على اكتشافها، وهي لا تزال حاضرة في الشرق كله. هناك كتب لم تكتب لكي تفهم، بل لكي تفسر وتؤول ولتعرض القارئ على تتبع فكرة واحدة محددة. ويتسبب مخلوف إلى أن بورخس ينظر إلى القراءة والكتابة بوصفهما توائم. القراءة تمنحه قدرا أكبر من السعادة. وهناك وفق تعبيره لذة أقوى من القراءة تتمثل في إعادة القراءة، أي في "الغوص أبعد ما يمكن في كتاب كنت قرأته". وهو يرى أنه "إذا شعرت بالضحجر وأنت تقرأ كتابا ما، فلا تتردد في أن تضعه جانبا، لأنه لا يكون كتب لك".

الأدب كما فهمه بورخس، ليس معنى جاهزا، وإنما مجموعة من الأشكال تنتظر

ما زال أدب خورخي لويس بورخس مثيرا للقراءة والاهتمام والترجمة، حيث أرسنى الكاتب الأرجنتيني عوالم ساحرة في شعره وسرده ونثره، عوالم استقاها كما أبرز أكثر من مرة بنفسه من الشرق، وخاصة من الإرث الأدبي العربي الذي ساهم في تشكيل وعيه الجمالي والفكري الذي لا ينفك يبهرننا بتفاصيله في كل مرة تترجم أعماله فيها.

عظيمة حقيقة هي متبادلة، ما عدا قطعة النقود الالمالية التي ترميها الصدفة في يد الفقير. فالذي يعطي لا يحرم نفسه مما يعطي، ذلك أن العطاء والأخذ شيء واحد. إن إهداء كتاب ما، هو ككل أفعال الكون، فعل سحري، ويمكن أن ننظر إليه بوصفه الطريقة الأجل للتلطف باسم. وما أنا الآن أتلفظ باسمك، ماريا كوداما. فكم من الصباحات، وكم من البجان، وكم من الحداق، شرقا وغربا، وكم من فيرجيل".

يقول مخلوف عن ذلك اللقاء الذي جمعه مع بورخس "حين دخلت عليه الغرفة العاشرة، وجدته ممددا على الفراش، وما إن شعر بوجودي حتى نهض وجلس على حافة السرير، ثم استدل على عصاه السوداء، فامسكها بيديه واتكا عليها. والتفت إلي بعينين مفتوحتين لا تريان، قائلا بصوت خفيض متعجب 'إنها عصا صينية قديمة اشتريتها منذ خمسة أشهر. هل أعجبتك؟'. وتابع يقول وهو يضحك 'لا أستطيع أن أفهم معنى اهتمام الناس بي. هل أنت واحد من هؤلاء؟'".

هذا الكلام الذي يبدو في ظاهره، بسيطا، وينطوي على شيء من المزاح، هو جزء من نظرتة إلى الأدب والعالم. في الصفحة الأولى من كتابه "حمية بومينس ايرس" يوجه بورخس إشارة إلى القارئ يقول فيها إنه لا يميز بين عديمين "عدمه هو نفسه وعدم يمثله قارئه. فالظروف الطارئة هي التي شاعت أن يكون هو الكاتب وليس القارئ".

ويضيف مخلوف أن بورخس في حوار مع منه تحدث عن بعض موضوعاته الأثرية: مكتبة والده، قراءاته الأولى، ألف ليلة وليلة، الأندلس، الشعر والمعنى. وقال إن الشرق عالم يجب اكتشافه وتسلط الضوء على مختلف حقبته التاريخية. وتساءل بورخس عما إذا كان الشرق اليوم موجودا بالنسبة إلى الشرقيين أنفسهم، لكنه سرعان ما شك في ذلك. ثم تحدث عن السياسة، وكان معروفا بمواقفه اليمينية على الرغم من

محمد الحماصي
كاتب مصري

عشرات من الترجمات إلى العربية ومختلف لغات العالم احتفت بالكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخس، وسوف يتواصل هذا الاحتفاء كونه لم يكن مجرد قاص وشاعر أو ناقد متميز أو فريد في رؤاه وأفكاره فحسب، بل كان منقفا إنسانيا انفتح على مختلف الثقافات الإنسانية. ومن ثم جاء نتاجه الإبداعي شعرا وقصة ونقدا ورسائل مختلفا في فرائه، وكذا اهتماماته الفكرية بعناصر علم الأساطير والرياضيات وعلم اللاهوت والفلسفة.

الأدب حسب بورخس ليس معنى جاهزا، وإنما مجموعة أشكال تنتظر معانيها وزمن العطاء فيه هو زمن القراءة اللانهائي

أحدث الترجمات التي تناولت بورخس ترجمة الشاعر اللبناني عيسى مخلوف لمختارات شعرية ونصية نثرية هما "الملك والمناهتان" و"ابن رشد واقتفاء المعنى" وجاءت المختارات بعنوان "الأحلام المترجمة.. بورخس في متاهة ألف ليلة وليلة".

مواطن عالمي
قدم مخلوف للمختارات التي صدرت عن مؤسسة بتانة بقراءة مطولة يجول فيها بين إبداعات بورخس انطلاقا من حضور التراث العربي في أعماله الشعرية والنثرية والقصصية، لافتا أيضا إلى لقائه به في باريس، هذا اللقاء الذي قادته إليه ماريا كوداما التي أصبحت زوجة بورخس قبل شهرين من وفاته. وأهدى بورخس مجموعته الشعرية الأخيرة "الرقم" و"المتامرون" لزوجته الأخيرة، وكتب في الإهداء جزءا من فلسفته في الحياة "كل